نظرية الأدب (١)

للأستاذ عبد الحميد راضى

نظرية الأدب حديث قديم ، تردد على فم الزمن من أقدم العصور ، وقد توالت الأجيال فلم تفتر حلبته ، ولم تطو صفحته . وها نحن أولاء فى آخر مرحلة من مراحل الزمن نشهد كل حين مساجلات وأحاديث ، هدفها خير الأسس للحكم على الأدب .

وحديثنا عن هذه النظرية ليس إلا صورة من صور هذا الجهد المتصل ، وصدى لهذا اللون من أحاديث الزمن عن الأدب ، فى مختلف الحقب .

وقوام هذه النظرية تحديد معنى الأدب ، وعرض مميزاته . فهى الفكرة أو مجموعة الأفكار التى تضع أمام نظرنا صورة دقيقة للكلام الذى يصح أن نسميه أدبا .

والنظرية التى نريد أن نلم بها هى النظرية القائمة على أن الأدب فن من الفنون وعلى أن الفنون محبوبة مرغوب فيها . وهى لهذا تستمد عناصرها من طبيعة الفن والأدب .

وهذا يقتضينا التغاضى عن نظرية أفلاطون : فهو يناهض الفنون ويراها لونا من المسخ غير خليق بالوجود . وسر هذا الحكم القاسى أنه كان مثاليا يصدر فى فلسفته عن إيمان عميق بعالم المثل ، وكان يرى الطبيعة تقليدا لهذا العالم ويرى الفنون تقليدا للطبيعة . فالفنون تقليد للتقليد . وصورة للصورة وهى لهذا بعيدة عن الحقيقة بمرتبتين . ذلك إلى أن الفنون تبسط سلطان العواطف وتشل العقول ، والعواطف متقلبة غير خليقة بهذا السلطان .

---

(١) محاضرة القيت في نادى دار العلوم فى مساء السبت ٢٦ يولية سنة ١٩٤٣

ويقتضينا التغاضى عن نظريات اللغويين والنحاة . فهم لا يلتمسون عناصر نظرياتهم من طبيعة الفنون والأدب ، وإنما يقيمون أحكامهم على فقه للفظ وضبطه وغلاتهم يسقطون الشاعر المجيد ، إذا اصطنع اللفظ الجديد أو جرى فى الإعراب على المرجوح أو الشاذ . وهم يعلمون أن اللغة كائن حى ، جموده آية فنائه ومسايرته للزمن دليل حياته . وأنها كالإنسان يعيش طويلا وخلاياه فى تجدد دائم ، أو هى كالشجرة والألفاظ كالأوراق ، وبمر السنين تسقط الأوراق القديمة وتخلفها أوراق جديدة . والشجرة باقية ، لا يزيدها سقوط القديم ، وظهور الجديد إلا حياة ونماء .

ويقتضينا هذا الأساس كذلك التغاضى عن نظريات الأفراد القائمة على الهوى والميل الشخصى والتى يحاول أصحابها فرضها على الأدب والأدباء . ومن أمثلة هذا وحدة الزمان والمكان فقد فرضت فى أوربا على الأدب والأدباء زمنا ولكن الزمن أثبت أنها لا تمت إلى طبيعة الأدب بسبب .

سنتغاضى عن هذا كله إذا وسنتحدث عن الأدب على أنه فن من الفنون أو على أنه ليس مسخا للطبيعة ولا تقليدا لها ، ولكنه تفسير لها ، وتقليد لفكرة فيها ، وخلق للصور من ظواهرها .

واننا لنرى أن من حق القدامى علينا أن نعرض آراءهم وننشر فضلهم ، فهم الذين ربطوا بين الأدب والفن فى فجر التاريخ الانسانى ، فارسطو المعلم الأول هو أول من بسط هذه النظرية على أقوم الأسس ، وقد اعترف له بهذا الفضل أعلام النقد فى العصر الحاضر ، ومما ذكره صاحب قواعد النقد الأدبى ما يأتى :

(إن نظرية أرسطو فى المأساة هى الأساس الذى توطد عليه بناء البحث الأدبى من بعد أرسطو إلى يومنا هذا)

وإذا ذكرنا فضل أرسطو فى بسط هذه النظرية فحقيق بنا أن نذكر فضل قوم آخرين قد يكونون أساتذة اليونان فى هذا السبيل ، هؤلاء الذين أعتيهم هم الفراعنة فقد جرى أدبهم بما يدل على وقوفهم على الصلة بين الأدب والفن قبل أرسطو بقرون :

فمن وصايا الملك خيتى أحد ملوك الأسرة العاشرة لابنه (مرى — كا — رع) ما يأتى :

(كن رجلا فن بارع فى قولك تكن قويا ، فإن اللسان سيف الملك ، والكلام أشد فعلا من القتال) .

وفى هذا مايدل على فهم الصلة بين الفن والقول ، بل مايدل على فهم معنى الفن إذ وصفه بأدق صفاته أو بالصفة التى تجمع ميزاته وهى البراعة .

وهذا التعبير (فن بارع فى قولك) يذكرنا بأحدث تعبير ، بل بأحدث عنوان لكتاب فى البلاغة ظهر هذا العام .

ولعل فى هذا مايدل على أن فن الأدب ، وفن القول ، والنثر الفنى ليس واحد منها كشفا جديدا ولا تعبيرا مبتكرا ، فأحدث ما يصطنعه المصريون من التعابير فى القرن العشرين الميلادى قد اصطنعه آباؤهم فى القرن العشرين قبل الميلاد ، إن لم نقل قبل هذا القرن بآماد .

والشىء الذى لا أشك فيه أن التراث اليونانى الذى انتهى الينا عن طريق أوربا ، والذى حدا بنا إلى التجديد فى التعبير فيه أثر من آثار الفراعنة الأقدمين .

على الأساس الذى شرعه القدامى إذا سنتحدث ، وعلى ضوء من وصف فرعون للفن سنسير .

فالفن ما هو إلا براعة فى الإنتاج ، والأدب ما هو إلا قول بارع الصوغ ، وأرانى بهذا التراث المصرى قد وصلت إلى مفتاح نظرية الأدب ، نظريته القائمة على أنه فن جميل .

فميزة الأدب الأولى ، أو الميزة التى تعتبر مشرق ميزاته هى :

البراعة فى الصوغ

ونحن نريد بها البراعة التى تحقق للأديب مايريد ، وهو لايريد إلا أن ينتقل اليك إحساسه وشعوره فى صورة من اللفظ تبعث الإعجاب بها والرضا عنها وتجعل النفوس تلقفها وتتأثر بها .

وكل لفظ صالح لهذا الصوغ ، والبراعة تتحقق بوضعه فى المكان الملائم له بحيث يكون بجرسه ومعناه مصدر الاحساس الأديب ، ورباطا قويا لماقبله ومابعده من الألفاظ . وقد أشار إلى هذا أحد أعلام الأدب الأوربيين الذين أدركوا القرن التاسع عشر الميلادى إذ قال فى مقدمة كتاب له :

(إن اللغة الصحيحة للشعر هى اللغة التى يتكلمها الناس ، والذى يجعلها لغة شعرية هو كيفية استخدامها)

وبديهى أن إحساس الأديب نحو الطبيعة غير الطبيعة ، ولذا يختلف الناس عند نظرهم إلى الشىء الواحد ، فقد يسر به قوم ، ويتألم به آخرون .

وهذا هو السر فى حملة أفلاطون على الفنون إذ اعتبرها مسخا للطبيعة على حين اعتبرها أرسطو تقليدا بارعا لفكرة فى الطبيعة فقدرها تقديرها وتبعه فى هذا التقدير نقدة العالم وأدباؤه .

وهذا يكشف لنا فرقا هاما بين العلوم والفنون ؛ فالعلوم تعبر عن الطبيعة كما هى والفنون تصور الطبيعة ملونة بنفس الفنان .

ومثل الطبيعة ونفس (الأديب) مثل الحبة ألقيت فى الأرض الخصبة ، فحنت الأرض عليها وغذتها وخلقت منها خلقا يبهر الدنيا ويملؤها أرجا وجمالا .

فاذا جاء أفلاطون وقال : إن الذى أرى ليس الطبيعة ، قلنا له بل نرى الطبيعة ولكن فى حياة جديدة . وإذا قال إننا بعدنا عن عالم المثل قلنا بل قربت من عالم المثل فهو عالم الحياة والجمال فى أبهى الصور ، والحياة والجمال فى النبات أبهى منهما فى الحبة ، فاذا قال وما فائدة الفنون ؟ قلنا فائدتها كفائدة النبات الذى نرى ؛ فاذا كان فى النبات حياتك وحياة الأحياء (جميعا) فكذلك الفنون فيها حياة لنفوس الأحياء .

فالأدب إذا تصوير لعنصرين متحدين الطبيعة والنفس الإنسانية : فالنفس الإنسانية عالم آهل بالذكريات والتجارب ، والظاهرة الطبيعية حين تسلك سبيلها إلى القلب تجد لها بين جوانحه عناصر تسكن إليها وتحف للقائها فتحدث لهذا اللقاء ما يحدث للمادة حين تجد ما تميل إليه من مواد : تفاعل ، فوران ، حرارة وصور أحيانا . فينفعل الأديب بهذا التفاعل ويهتز بهذا الفوران ويتحمس

بهذه الحرارة ، ويرى بهذا الضوء الصورة كاملة واضحة ، فيعجب بها ويطرب ؛ ويراها خلقا جديدا لم يره من قبل ولم يره الناس من قبل ؛ فيبعثه هذا كله إلى أن يخرجه للناس ليفتنهم كما فتن وليؤثر فى نفوسهم كما تأثر ، وليجعلهم ينفعلون كما انفعل ويهتزون كما اهتز ويتحمسون كما تحمس .

وحرصه على تحقيق هذه الغايات ، وتحمسه البالغ لهذه الصورة النفسية يجعله يصورها تصويرا مطابقا ، ويبرزها سليمة تنبض بما كمن فيها من حرارة وحياة .

* * *

وليس سبيله إلى هذا وصف مايحس به وإن بلغ غايات الوضوح . ولكن سبيله إلى هذا تصوير مافى نفسه تصويرا يمكن السامع والقارىء من رؤيته ولمسه والاحساس به وهذا التصوير عنصر ذو خطر فى الأدب ، فهو صاحب الأثر السحرى فى النفوس ؛ وهذا ما دعا المنفلوطى إلى أن يعرف الشعر بأنه تصوير ناطق ، ودعا سيمونيدس اليونانى أن يقول فى أقدم العصور : (إن الرسم شعر أخرس ، والشعر رسم ناطق) بل لعل هذا هو السر فى أن اليونانيين كانوا يعرفون الفن بأنه تقليد .

ونحن فى سبيل هذا التصوير نجانس بين اللفظ واللفظ من ناحية المعنى ومن ناحية الجرس ، ونجانس كذلك بين جرس اللفظ والصورة ، ونحقق للنص الأدبى وحدته (وحدة الموضوع) فتكون الفقرة والجملة كالعضو فى الجسم لا غناء عنها ولا غناء بها .

ونحن فى سبيل هذا التصوير نطلق المعانى الثانوية أيضا أو بعبارة أخرى نطلق الصور البلاغية .

على أن الأديب لن يلقى فى هذا التصوير عنتا ولا مشقة فالمفروض فيه أنه لا يقنع بحفظ معانى الكلمات ، بل يحس معانى الكلمات وجرسها واستعمالها إحساسا صادقا ، وهذا الاحساس الصادق سيكون له أثر أى أثر فى انهيال الألفاظ عليه حتى ليرى أن اللفظ يسرع إلى موضعه الملائم له دون شعور إرادى منه ذلك إلى أن الصورة النفسية تملأ جوانب نفسه حتى ليحس أنه فى عجز عن كبتها ويحس أن راحته فى أن يحس الناس بها إحساسه .

على أن الأديب عند حدوث الصورة النفسية أى فى الحالات التى تسمى يقظة العبقرية أو لحظات الابداع الفنى أو قشعريرة الإلهام - يجرى نفسه على غير مايهوى فقد يتتابع عنيفا وقد يتضاءل ، وكذلك القلب قد يسرع نبضه وقد يبطىء ولكل هذا أثر غير إرادى فى الانتاج الفنى .

فالبراعة فى التصوير توافى العبقرى دون مجهود يبذله ، ودون إرادة توجهه أو تحمله على الإنتاج ولذا قال سقراط إن الشعراء لايقولون الشعر لأنهم حكماء بل لأن لديهم طبيعة أو هبة قادرة على أن تبعث فيهم حماسة أى إلهاما .

* * *

وهذه الصورة النفسية التى يحاكيها الأديب ، أو يبرزها فى أسلوبه هى التى نسميها الشعور الفنى أى الشعور القائم على الاتصال بين الطبيعة والنفس الخصبة ونستطيع أن نسميها الإلهام لأنها تتكون ولايد للارادة والفكر فى تكوينها ونستطيع أن نسميها التجربة وهو لفظ اصلاحى يدل عليها .

وقد تحدث صاحب قواعـــد النقد الأدبى عن هذه التجربة وأنها أساس الأدب فقال :

١ ــ ليست التجربة بالأمر البسيط بل لا بد لها على الأقل أن تكون مركبة من أمرين مايعطى الفكر وما يعطيه الفكر) .

٢ ــ فالمؤلف الذى يشاهد منظرا من مناظر الطبيعة لايستطيع أن يعطى القارىء تجربته هذه إذا اكتفى بذكر المنظر الذى رآه أو اكتفى بذكر الاحساس الذى خامره بل يجب أن يؤدى تجربته تامة الأجزاء لما شاهده وما أحسه مرتبطين ارتباطا وثيقا وهذا هو مادة الأدب لا شىء غير هذا ولا شىء دون هذا .

٣ ــ الأدب ما كان يوما ولن يكون يوما سوى تجارب يصورها الخيال .

وصاحب هذا الكتاب انجليزى معاصر من أعلام النقد وأساتذته ، ولكن آراءه لاتبعد كثيرا عما قال أرسطو وهو أن الأدب تقليد لفكرة فى الطبيعة .

ومن هذا نرى أن القدامى والمحدثين متفقون على أن الأدب تصوير دقيق لهذه

الصورة النفسية التى سموها التجربة ، وأن هذه الصورة ليست بسيطة ولكنها مزيج من الطبيعة ونفس الأديب .

ولكن كيف تكونت هذه الصورة ؟ وما الذى كونها ؟ أما أنا وقد بعد بى العهد بدراسة علم النفس — فأقول إنها تكونت وحدها ، لأن الفكر لم يشترك فيها أو اشترك فيها بحظ ضئيل ، ولأن الارادة كذلك لم تشترك فيها . ولذلك سموها إلهاما .

ولا بد أن يكون مخترعها هو حافظ المعارف والتجارب وهو ما نسميه الخيال ، زاره زائر جديد فاختفى به حوله كل ما يوائمه ويميل إليه وابتكر من الجميع صورة قوامها الزائر الجديد .

وما وظيفة هذا الخيال المختزل ؟ ولم يخترع ؟ وظيفته إيقاظ العواطف ، ويخترع لهذا . وهذا النوع من الخيال لا يحيا حياة طيبة فى ظل الفكر ولا يعيش فى ظل الإرادة ، ولكنه يحيا حياة خصبة فى ظل الوجدان .

وما كان لهذا الخيال أن ينشط فى ظل الفكر ، فالفكر يقيده بالمقدمات والنتائج وما كان له أن يصنع صنيعه فى ظل الإرادة ، فالارادة تعصف به ، وتحول بينه وبين ما يريد وأما الوجدان فيترك له حرية العمل كاملة ، وحسبه أن يظفر منه بصورة يتأثر بها . والخيال فى ظله يتحرر من الزمان والمكان وقوانين المنطق ، فيصنع من شتيت الحوادث فى مختلف الأزمنة والأمكنة صوره غير خاضع لقوانين العلة والمقدمات والنتائج .

فالكلام الذى يصور هذه الصور النفسية تصويرا بارعا يجعل القارىء أو السامع يحس إحساس المتكلم ويتأثر تأثره وينفعل انفعاله هو ما نسميه الأدب وننتهى من هذا إلى أن البراعة فى الصياغة هى قوام مميزات الأدب ، ونحن نريد من البراعة فى الصياغة البراعة فى تصوير مافى نفس الفنان تصويرا يطابقه وينقله إلى نفس القارىء أو السامع كاملا

ولعل هذا أو بعض هذا هو ما قصد اليه أبو هلال العسكرى حين قال :

(وليس الشأن فى إيراد المعانى فالمعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى

والبدوى وإنما هو جودة اللفظ وصفاؤه وحسنه وبهاؤه ونزاهته ونقاؤه .
وهنا يدور بخلدى وخلدكم هذا السؤال .

وما شأن المعنى

واتفاقنا على أن الأدب فن ، وأن الفن براعة فى التصوير يجعلنا نصل فى يسر إلى أن البراعة فى الصياغة هى أساس الحكم على الأدب ، فاذا صور الأديب ما فى نفسه هذا التصوير البارع الذى وصفناه حكمنا له

وأما المعنى فلا براعة فيه ، ولكن البراعة فى الصلة التى يؤدى بها ، ولذا لا يعتبر مقياسا للحكم على الأدب ، وينتهى بنا هذا إلى أن نصدر حكما ابتدائيا نستمده من طبيعة الفن والأدب وهو :

« البراعة فى التصوير هى المقياس الأول والأخير للحكم على الأدب ، وأما المعنى فلا دخل له فى الحكم على الأدب فليس من شأن الأدب أن ينقل المعارف ولذا لا يعيب الأديب خطأ الفكرة ولا يرفع من شأنه صحة المعنى) ولكننا نجد أنفسنا أمام نصوص خليقة بالتقدير

١ — فقد قال صاحب المثل السائر : البلاغة شاملة للألفاظ والمعانى

٢ — وقال صاحب الطراز : واعلم أنه لاخلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان أن الكلام لا يوصف بكونه بليغا إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ ولا يكون بليغا إلا بمجموع الأمرين .

٣ — وقال عبد القاهر فى : (تحقيق القول من البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة) ما يأتى :

ا — ومن المعلوم أنه لا معنى لهذه العبارة وسائر ما يجرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى — غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين وأدق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد ، ولا جهة لاستعمال

هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذى هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يلسبه نبلا ويظهر فيه مزية

ب — وقال بعد :

ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها فى النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاشبت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل

ج — وقال بعد :

وأوضح من هذا كله وهو أن هذا النظم الذى يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكرة

وهذه نصوص ناطقة بفضل المعنى فهى تجعله شريك اللفظ فى تحقيق البلاغة أو تجعله الأول وتجعل اللفظ خادماله فى تحقيق البلاغة . ولكنها على قيمتها ليس من شأنها أن تنقض حرفا مما قلناه . فنحن نسير على أساسين لاسبيل إلى نقضهما .

د — أولهما أن الأدب فن وأن الفن براعة والبراعة لاتكون إلا فى الصوغ وثانيهما أن الأدب لايعيش إلا فى ظل الوجدان ونحن نعلم أن الوجدان من مظاهر الشعور وأنه متى بسط ظله تضاءل صاحباه وهما الفكر والإرادة

على أن كشف السر فى هذه النصوص ليس عسيرا ، بل هو أهون مما نتصور فهى نصوص تتحدث عما وقع ولا تتحدث عن الأدب كما يجب أن يكون ، وتفسير هذا أن توالى الزمن أنضج الفكر وقواه ، وأعطاه من البسطش مالم يكن له ، فبغى على الوجدان وادعاه مجالا حيويا له لأنه أقرب الطرق وأسهلها لنشر إنتاجه ، واستعان بنظرية النشوء والارتقاء سلاحا له ، وهنا قام كفاح بين الفكر وأنصاره والوجدان وأنصاره ، انتهى بأن يكون حظ الوجدان من الاستقلال ما يسمى الاستقلال الذاتى أو الاستقلال الداخلى ، وله بهذا أن ينتج ما كان ينتج من الأدب الخالص الذى لايقصد فيه أبدا إلى نقل المعارف ، وعليه فى مقابل هذا أن يؤدى الجزية وهو صاغر هذه الجزية هى نشر الإنتاج الفكرى متى طلب اليه ذلك

وهنا نشأ أدبان : أدب خالص قوامه تصوير الشعور والتأثير فى النفوس

والآخر يجمع إلى حسن الصوغ نقل الأفكار وقد سمى الادب التطبيقى ، وهذا يكون لمعناه أثر فى نفسك غير أثر اللفظ فأنت تعجب بأسلوبه وتعجب كذلك بما تضمنه من معنى

وإلى هذا أشار الأستاذ ضيف حين قال

(نرى من خلال هذا النزاع الذى احتدم بين القدماء والمحدثين أنه مبنى على فكرة فلسفية . . . إذ أن الفكرة الأساسية هى مسألة التقدم والارتقاء التى هى أصل فلسفة ديكارت المتسربة إلى الأدب المبنية على الاهتمام بالأفكار قبل الاهتمام بالصناعة اللفظية ... وقد زج هذا المذهب بالبلاغة فى مضايق الفلسفة وجعله مبنيا على البحث عن الحقائق بدل البحث عن مظاهر الجمال فى القول ، وعلى ذلك لايكون هناك فرق بين البلاغة والفلسفة ولا بين الفيلسوف والكاتب والشاعر لأن كلا منهما على رأى ديكارت يقرر الحقائق ... ولكن الذوق الأدبى فى فرنسا كانت هذبته الآداب القديمة بما فيها من الجمال ولذلك بقيت البلاغة فنا من الفنون الجميلة ، ولم يتغلب العلم والفلسفة عن محو ميزة البلاغة وهى الجمال فى القول وفى حسن التعبير وامتزجت الحقائق الفنية وأصبح البحث عن الحقائق سالكا طريق الجمال

وإلى هذا أشار أيضا الأستاذ الشايب إذ قال :

وعندى أنه لابأس بأن يحمل الفن فى طياته أسباب الاصلاح فيجمع بذلك بين النفع والتأثير ، ولكن الخطر الخطير أن تحمل النفعية سيدا عظيما لا ضيفا كريما) على أن النقدة الغربيين لازالوا يحكمون على الأدب مع هذا حكما قائما على أساس البراعة والصياغة ، ويغضون الطرف عن المعنى حين الحكم عن الأدب سواء أكان خالصا أم تطبيقيا

وبدهى أننا إذا أسرفنا فى تقدير المعنى فاننا ننتقل إلى العلم والفلسفة من حيث لانشعر وبهذا عاب أصحاب البحترى أبا تمام فقد ذكر الآمدى على لسان أحدهم غضا من شعر أبى تمام وعلل هذا بقوله : إذ كان معلوما شائعا : أن شعر العلماء أقل من شعر الشعراء . ولعلنا بهذا نكون قد وصلنا إلى مميزات كثيرة للأدب لاتحتاج إلى إيضاح منها

ا ــ وحدة المشروع

ب ــ شخصية الأديب

جـ ــ أن يكون للعاطفة أثر فيه

وهنالك ميزات أخرى قد تكون واضحة ، ومع هذا لانرى بأسا من تناولها . وهى : الحيوية ، الجمال ، الخلود ، الصدق .

ا ــ ونقصد بحيوية الأدب مافيه من نبض وحياة . وليست حياة الأديب بدعا فى الوجود فهى كل الكائنات وليدة عنصرين مختلفين : فاذا كان الأساس فى حياة النبات والحيوان تلاقى عنصرين قابلين للاتحاد ، عنصرين فى كل منهما ميل لصاحبه ، ونزوع للامتزاج به ، فكذلك الأدب حياته قائمة على تزاوج عنصرين مختلفين : عنصر خارج عن النفس الإنسانية وعنصر من النفس الإنسانية وبهذا التزاوج بين العنصرين يسرى فى الأدب روح تبعث فيه النبض وتشيع فيه الحياة .

فالكلام الذى ينتجه عنصر واحد يكون كالثمرة التى لم يتح لها لقاح لاتهفو اليها نفس ولا يرغب فيها لذاتها راغب .

فإذا صور الكلام منظرا طبيعيا تصويرا دقيقا أو بعبارة أخرى تصويرا علميا فإنه لايكون بذاته حافزا للاقبال عليه ، وقد يحفز لقراءته مايتضمنه من معنى وقد يقرؤه الانسان وهو كاره كما يشرب الدواء لنفع فيه ، والأدب لايقرأ لنفع فيه وإنما يقرأ لأنه هو ذاته يستهوى النفوس .

فالكلام لايتسم بالحيوية إلا إذا كان وليد هذين العنصرين والحياة التى توهب له هى مصدر من مصادر إعجابنا به ورضانا عنه .

على أن هذه الحياة ليست مبتكرة فى الأدب وليست من خلق الأديب ولكنها وليدة التصوير الصادق للصورة النفسية الحية التى تحدثنا عنها .

وأما الجمال

ب ــ وجمال الأدب يتلبس فى كل ناحية من نواحيه : ففى وحدته وتماسك أطرافه جمال وفى موسيقى لفظه جمال ، وفى صلة هذه الموسيقى بتصوير المعنى جمال ،

وفى اطلاق المعانى الثانوية (المعانى البلاغية) جمال ، وفى وضع كل كلمة فى الموضع الذى لانرى لها محلا غيره جمال ، وفى غرابة الصورة وجدتها جمال ، وفى تصويره النواحى النفسية التى لم يفطن لها السامع أو فطن لها ولم يستطع تصويرها جمال ، وفى صدقه جمال .

حـ — وهذا الجمال سر من أسرار خلود الأدب ، وهنالك أسرار أخرى ، والأخ الفاضل الأستاذ الشايب يرجعه إلى العاطفة ويعلل هذا بأن الانسان ينفعل به فإذا تركه زال الانفعال وإذا قرأه مرة أخرى تجدد الانفعال فيبقى الانسان دائما فى حاجة إلى التمتع به .

ونحن قد نصل مما قلناه إلى خلود الأدب كذلك فقد قلنا إن الوجدان متى بسط ظله فإن الارادة تتضاءل ، وفى تضاؤل الارادة خلود الأدب ، فالإنسان الإرادى إنسان فردى يعظم شعوره بنفسه فهو أنانى يؤمن بأنه من طينة غير طينة الناس فهو لهذا لايحس إحساسهم ولا يشعر شعورهم ذلك إلى أن هذه الأنانية بل هذه الإرادة تدفعه إلى المطامع فيشغل بها ولا ينظر اليها نظرة خالصة فإذا تحرر الانسان من هذه الإرادة قويت إنسانيته فأصبح يشعر شعور الانسان ويتأمل الحقائق تأملا خالصا من كل غرض ، فإذا تملكه إحساس شعر أن هذا إحساس الناس جميعا فوزعه عليهم ، ونقله فى أمانة وإخلاص إلى نفوسهم .

بل هو فى شعوره أكثر من إنسان : هو مخلوق من هذه الأرض ولذا يحسن فهمها وفهم ظواهرها ، ولا يرى صفة تقصر على صنف منها .

فالابتسام حق مشاع ؛ الانسان يبتسم ، والزهرة تبتسم ، والطبيعة تبتسم والطرب حق مشاع : فالانسان يطرب ، والأغصان ترقص وتطرب وتشرب والانسان فى نظره جامد أحيانا كالحجر ، والحجر عنده أحيانا ناطق مبين . على أن العبقرى لايتحرر من الارادة وحدها بل يتحرر كذلك من الزمان والمكان وقوانين المنطق كما قلنا .

والزمان رمز الفناء ، والمكان دليل الجمود ، والعلة طاغية جبار يتطلب أن يخضع كل صنيع لمنطق العقول .

ومن تحرر من الزمن فالدهور كلها زمنه ، ومن تحرر من المكان فكل مكان وطنه ومن تحرر من العلة لا تسأل النفس حين تتقبله لم تتقبله .

وأما الصدق فى الأدب فمن أظهر مميزاته لأن الأديب لا يصور إلا شعوره إلا إذا تحكم فيه الفكر وتحكمت الارادة لهوى من أهواء الدنيا فحملاه على أن يقول مالا يشعر به ، فيمدح من لا يحب ، ويصف الشيء بغير صفاته .

وإذا كان من مأثور الأدب العربى أن أحسن الشعر أكذبه فرأيى أن هذا قد يكون فى أدب الفكر أو بعبارة أخرى الأدب التطبيقى وأما الخالص فأحسنه أصدقه .

عبد الحميد راضى
المدرس بالكلية الحربية